

التربية بالقصة^(١)

القصة نوع من الأدب له جماله وسحره ومتعته. يشغف به الصغار والكبار. ولقد تفنن القصاص عبر العصور في امتلاك ناصية الجمهور من خلال قصص مفتلعة، قد يكون لها أساس وقد لا يكون، شغلوا بها الناس وضيعوا لهم أوقاتهم، وصار الناس منقسمين مع أبطال القصة، يؤيد هذا الفريق بطلا، ويؤيد الفريق الآخر بطلا، ولقد أخرج سيدنا علي عليه السلام القصاص (من هذا الصنف) من مسجد جامع البصرة^(٢).

والقصة في القرآن الكريم ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في بقية القصص الفنية، إنما هي وسيلة من وسائل التربية الإسلامية^(٣). التي تسهم في بناء الشخصية الإسلامية من خلال توصيل المعلومات والحقائق بطريقة شيقة لذيدة، وتربية الأطفال تربية خلقية صحيحة فهي تضع المثل أمامهم وتستثير ميلهم إلى التقليد وتحرك قابليتهم للاستهواء^(٤).

والإسلام يدرك هذا الميل الفطري للقصة ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فاستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم.

وهو يستخدم كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بآماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض نموذجا لحالة بشرية ، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج .

والقصة التمثيلية : التي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور .

(١) التربية ودورها في تشكيل السلوك : مصطفى محمد الطحان .

(٢) إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ٤٦/١ .

(٣) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ص ١١٧ .

(٤) التربية وطرق التدريس : صالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد ٢٤٧/١ .

من النوع الأول كل من قصص الأنبياء ، وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من جرأ هذا التكذيب . وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر: موسى وفرعون ، عيسى وبني إسرائيل ، صالح وثمود ، هود وعاد ، شعيب ومدين . لوط وقريته ، نوح وقومه ، إبراهيم وإسماعيل ... إلخ .

ومن النوع الثاني قصة ابني آدم :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١) .

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٩﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَاتٍ أَكَلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٤٠﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٤١﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٤٢﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤٣﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٤٤﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٤٦﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٧﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٨﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢) .

(١) المائدة .

(٢) الكهف .

والقرآن الكريم يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي : تربية الروح ، وتربية العقل ، وتربية الجسم ، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس ، والتربية بالقدوة ، والتربية بالموعظة ، فهي سجل حافل لجميع التوجيهات ^(١) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ ^(٢) .

وقال أيضا : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ ^(٣) .

لقد كان في قصصهم عبرة :

والقرآن الكريم لا يسوق من القصة إلا ما يتعلق بالغرض الذي سيقت من أجله ، كي تظل العلاقة وثيقة بين القصة والمناسبة الداعية لذكرها . من أجل ذلك لا نكاد نجد القرآن يسرد القصة سردا تاريخيا تبعا لسلسلة الوقائع والأحداث ، إذ من شأن ذلك أن تبتعد القصة بالقارئ عن المناسبة والغرض الأصلي .

في قصة أصحاب الكهف ، قال القرآن الكريم : ﴿ إِنَّهُمْ فَتْنَةٌ أَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ^(٤) . من هؤلاء القوم ، وفي أي بلدة كانوا يعيشون ، وكم كان عددهم ، وما هي أسماؤهم ؟

لقد كان مقتضى السرد التاريخي أن تحجب القصة عن هذه الأسئلة كلها ، ولكنها لو سرت على هذا المنوال ، لغفل القارئ عن العبرة والعظة اللتين سيقت القصة من أجلهما . وحتى لا يندمج القارئ مع أحداث القصة وينصرف إليها بكل تفكيره ، نجد القرآن الكريم يقطع أحداثها بالعظات والعبر التي يريد أن يلفت النظر إليها .

(١) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب / ١ / ١٩٣ .

(٢) آل عمران : ٦٢ .

(٣) يوسف : ٣ .

(٤) الكهف : ١٣ .

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ١ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ٣﴾ (١).

لقد أدخل العبارات الإرشادية والعبرة ضمن أحداث القصة ، ليلفت النظر لها ، فقد سبقت القصة من أجلها (٢).

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣).

وقال أيضا : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ تَخَشَّى﴾ (٤).

فأهداف دراسة التاريخ من وجهة النظر التربوية هي :

• البحث عن العبرة في الحدث التاريخي .

• والبحث عن تحقيق سنة من سنن الله في الأمم والأجيال ، فأحداث التاريخ لا تمضي عبثا بل وفق سنن لا تتخلف ، المقدمات فيها تفضي إلى النتائج المقررة .

• والبحث عن أثر إصلاح النفس البشرية وتربيتها في مجرى الحوادث التاريخية : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٥) .

• والبحث عن حكمة الله وتدييره في ضرب الظالمين : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (٦).

(١) يوسف .

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليها : عبد الرحمن النحلاوي .

(٣) يوسف : ١١١ .

(٤) النازعات : ٢٦ .

(٥) الأنفال : ٥٣ .

(٦) الحج : ٤٠ .

• وبشرى للمؤمنين الذين يأخذون بالأسباب، بنصر الله .

• ومعرفة أن الغاية من القوة والغلبة والتمكين في الأرض هي إقامة شرع الله ﷻ الَّذِينَ
إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ .

• والبحث عن الموازين الربانية في الأحداث التاريخية، مما يمكن الدارس للتاريخ
الذي تعرف على السنن الربانية من معرفة صواب الأحداث من خطئها، ومن
تمديد ذلك إلى أحداث المستقبل (١) .

وعلى المربي : أن يشجع الشباب على قراءة السير ، وأن يختار القصص التي تنمي
المواهب المختلفة على أن تكون بعيدة عن الإسفاف والسفه وإثارة الغرائز ، وأن تكون
واضحة المعنى بينة الحكمة خالية من الخرافات والأساطير مقتصرة على الحقائق سواء
كانت علمية أو تاريخية بأسلوب مهذب رقيق رفيع مفهوم وشيق ورشيق (٢) .

(١) الحج : ٤١ .

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها : عبد الرحمن النحلوي (بتصرف) .

(٣) المراهقون : سمير الراضي ص ١٠٤ .